

وجوه التكسب الحلال وشروطه

وجوه التكسب الحلال كثيرة، منها على سبيل المثال: الحراثة، والتجارة، والصناعة، وتربية الدواب والدواجن وغير ذلك. * فمن الناس من تكون همته في الأرض، فيستثمرها ويغرسها ويجد في ذلك معيشته وكسبه، ويستغني بذلك عن سؤال الناس، ولا شك أن كسب الحث يُعَدُّ من أفضل المكاسب، وقد جعله الله تعالى من جملة الجِرْف التي زينت للناس، في قوله تعالى: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْوَيْصَةِ وَالْحَئِثُ الْفَسْؤَمَةِ وَالْإِنْتِمَاعِ وَالْحَزْنُ } [آل عمران: 14]. فعمل الحث من جملة ما زين للناس؛ لأن فيه كسبًا وإنتاجًا ينعف به الإنسان نفسه، وينعف به أيضا غيره، فيأكل ويبيع وينفع الناس، وينعف الأشجار، ويجني الثمار، وإن كان في ذلك كلفة ومشقة فهذا مما يثاب عليه الإنسان إن احتسب أجره، ولا سيما إذا تصدق منه ونفع به غيره. * ومن الناس من تكون همته في التجارة، ولا شك أن التجارة أيضا من جملة الجِرْف التي يكتسب بها المال، قل أو كثر، والتجارة هي شراء السلع وبيعها لأجل الربح فيها إذا بيعت بثمن يزيد عن قيمتها التي اشترى بها. وقد ورد ذكر التجارة في القرآن في قوله تعالى: { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا } [الجمعة: 11] وقوله: { قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التَّجَارَةِ } [الجمعة: 11] وقوله: { رَجَالٌ لَا لِيَهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [النور: 37]. فالتجارة التي هي البيع والشراء من جملة الجِرْف المباحة، ولكن قد يلتبس بها ما يفسدها، أو يدخل الفساد فيها؛ ذلك أن التجار والباعة قد يعاملون معاملات فاسدة، إما روية أو غيرها، فتدخل المجرمات في هذه المعاملات!! وهنا تتدخل الشريعة الإسلامية لتبين الحلال والحرام في الجِرْف. * وقد أحل الله للمعاملات التي ليس فيها ضرر، فقال تعالى: { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا } [البقرة: 275] وقال في آية الجمعة: { قَاسِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ } [الجمعة: 9]. فدل على أنه قيل النداء إلى صلاة الجمعة بياح البيع الذي يقصد من ورائه الربح، ثم لا شك أن هذا البيع مع كونه بيعا ليس فيه ربا ولا غش، فإنه قد يدخل فيه شيء يقلل من فائدته الأخروية، أو يدخل عليه فساد أو ضرر!! فلاجل ذلك جاءت الشريعة بمنع البيع بعد النداء الثاني من يوم الجمعة؛ حتى يتفرغ الإنسان للصلاة والذكر. وقد نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الكثير من المعاملات أو المبيعات التي فيها شيء من الضرر على الآخرين، فنبت أنه { نهى عن بيع الغرر } لحديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن بيع الغرر". أخرجه مسلم برقم (1513). وذكر أيضا أمثلة أخرى من البيوع التي فيها غرر، فنهى عن بيع كل شيء لم يكن مشاهداً ومعلوماً؛ لما فيه من الغرر، كالذي يسمونه بيع جبل الحيلة لحديث ابن عمر -رضي الله عنهما-: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن بيع جبل الحيلة، وكان يبيعا يتباعيه أهل الجاهلية، كان الرجل يئاع الجزور إلى أن تنتج الناقة، ثم تنتج التي في بطنها". أخرجه البخاري برقم (299). ومسلم برقم (1514). وفي بيع الملامسة لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الملامسة ولكتابيه، ولأنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الملامسة والمنايعة". والمنايعة لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الملامسة والمنايعة". أخرجه البخاري برقم (300، 300، 4) ومسلم برقم (1511). وبيع الحصاة لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن بيع الحصاة". أخرجه مسلم برقم (1513). وبيع ضربة الغائص، وبيع المغنم قبل أن تُقسم لحديث أبي سعيد رواه أحمد برقم (11363) وابن ماجه برقم (2196). وما أشبهها من المعاملات التي فيها ضرر على أحد المتبايعين. وما ذاك إلا أن هذا الضرر إذا وقع في هذه المعاملات أحدث الفُرْقَة بين المسلمين؛ لأن هذا الذي حُدِّع من غيره وأجِدَّ ماله بغير حق يحمل على أخيه ويمقته، ويسيء الظن به وبيعه، فتقع بين المسلمين المقاطعة والعداوة والبعضاء، فلأجل هذه الأسباب حُرِّمت هذه المعاملات المحرفة التي فيها ضرر أو غرر، وحرمت أيضا المعاملات الربوية، وتفصيلها كثيرة لا يتسع المجال لذكرها. وقد أمر الإسلام الباعة وتوهمهم المسلمين ونهاهم عن غشهم وخداعهم، وقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حث على النصيحة فقال: { الدين النصيحة، وكررها ثلاثا، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: للمسلمين والمسلمين وعماتهم } أخرجه مسلم برقم (55) وأبو داود برقم (4944). فجعل من جملة خصال الدين النصيحة لعامة المسلمين، ولا شك أن النصيحة تستدعي إخلاصا، وتستدعي صفا قلب، وتستدعي مودة، فالناصر هو الذي يحب الخير لإخوانه المسلمين كما يحب لنفسه، ولا يؤثر مصلحته على مصلحة أي مسلم. وقد جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- النصيحة من خصال الخير، وأنها من حقوق المسلمين بعضهم على بعض، فقال -صلى الله عليه وسلم- { للمسلم على المسلم ست بالمعروف: تسلّم عليه إذا لقيت، وتحييه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتتنع جنازته إذا مات، وتنصحه إذا استنصحك } أخرجه مسلم برقم (2162)، والترمذي برقم (2737). . وفي رواية: { وتحب له ما تحب لنفسك } . فإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي هو مرشد الأمة، والذي هو ناصرهم قد حثنا على أن يحب أحدا لأخيه ما يحبه لنفسه؛ فإنه لا تقتصر النصيحة على أمور العبادات أو الأمور الشخصية، بل تدخل في كل شيء، ومن جملة ذلك { النصح في المعاملات، ولكننا في هذا الزمان نجد خلاف ذلك، فهناك الكثير من الباعة -هداهم الله- لا ينصحون المشتري، ولا يظهرون العيوب التي توجد في السلعة، فترى أحدهم يظهر السلعة على أنها جيدة، وهي في الحقيقة رديئة، ولا يخبر براءتها! والعادة -هداهم الله- بل من الفش والخداع، وقد حَرَّمَ الله ذلك على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: { من غشنا فليس منا } وذلك { أنه -عليه الصلاة والسلام- مَرَّ على رجل يبيع طعاما من الحبوب ونحوها، فأدخل يده فيه فأصابته بللا -يعني رطوبة- فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله! -يعني: المطر- قال: هلا جعلته في أعلاه كي يراه الناس؟! من غشنا فليس منا! } أخرجه مسلم برقم (102)، والترمذي برقم (1315)، وابن ماجه برقم (2224). . فأمره أن يجعل الطعام الذي أصابه المطر في الأعلى حتى يراه الناس؛ لأنه إذا جعل أعلاه يابسا، ثم عند الكيل أخذ من الرطب، وباعهم إياه، إما كيلو أو وزنا، فإنه يبيعهم شيئا ليس بخالص، وليس بصافي، فيكون قد أوقعهم في غش وخداع، وباعهم ما ليس بطيب، أي: باعهم الشيء المغشوش الرديء على أنه جيد! وهذا ما يقع فيه كثير من الناس اليوم، ويحتالون بحيل كثيرة ليكتسبوا بها الأموال، فيبيعون مثلا السلع الرديئة غير مبيّنة عيوبها! ولا شك أن هذا مما يفسد الأموال، ومما يدخل على الإنسان السُّحت والحرام، فعلى الإنسان أن يحرص على طيب مكسبه ألا يدخل عليها إلا كسبا لالا، فلا يتعدى إلا لبذاء الطيب، ففي الغذاء الطيب تأثير في العقل، وتأثير في النفس، وتأثير في العبادة، وتأثير في المجتمع. والغذاء الطيب والمكسب الحلال يكسب القلب قوة، ويكسب القلب صفا وإخلاصا، كما أن الغذاء الطيب يكون سببا في قبول الأعمال وإجابة الدعوات. والغذاء الطيب يكون سببا في بركة الله ومباركته للأعمال والأعمار والأموال، وأثر ذلك واضح، فقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: { كل لحم نبت على سحت فالنار أولى به } أخرجه السيوطي في الدر المنثور (2) (284). وقد قال -صلى الله عليه وسلم- في وصيته لكعب بن عجرة: " لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت، النار أولى به". أخرجه الإمام أحمد (321، 399)، وصححه ابن حبان (1569) و (1570). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (4395). . والمراد أنه إذا تغذى الإنسان بالسحت، الذي هو المال الحرام بجميع أنواعه، فالنار أولى به والعباد بالله! وقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من أسباب إجابة الدعاء إطابة المطعم فقال -صلى الله عليه وسلم- { يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة } أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (2) (547). . وهذا مُشاهد، فالإنسان كلما اقتصر على الحلال، وعلى الكسب الطيب، الذي ليس فيه أدناس من الحرام، ولا من المشتهية فإن الله تعالى يجعل دعاءه مستجابا، إن دعى الله بربز رزقه، وإن دعى ربه بكشف صرة كشفه، وإن دعى لنفسه قيل دعائه، وإن دعى للمسلمين استجيب دعوته. وهذه كلها من فوائد إطابة المطعم، وأما إذا كان المطعم بيتنا فإن الدعاء مردود!! وقد ثبت في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: { إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا } وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } ثم ذكر -صلى الله عليه وسلم- الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء ويقول: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُدِّي الحرام، فأني يُستجاب لذلك؟! } (رواه مسلم [أخرجه مسلم برقم (1015)، وأحمد في المسند (2) (328). . فتأمل أخي المسلم كيف ذكر -صلى الله عليه وسلم- من أسباب استجابة الدعاء إطالة السفر، فإن المسافر طويل السفر رقيق القلب، ويكون خاشعا متواضعا، وذلك من أسباب إجابة الدعاء، ومع ذلك ما استجيب دعائه!! لماذا؟! لأن مطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام!! كذلك وصفه بأنه "أشعث أغبر"، يعني: متضعف متدلل، ليس له عناية بيده، فرأسه قد تشعث، ووجهه قد اغتبر، وهذا من صفة التذلل، ومع ذلك ما استجيب دعائه!! مع أن الله يحب دعاء خاشع القلب، كما ورد في الحديث الشريف: { رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره } أخرجه مسلم برقم (2622)، والحاكم في المستدرک (4) (328). . وكذلك من أسباب إجابة الدعاء رفع اليدين، كما يقول -صلى الله عليه وسلم- { إن ربكم حيي كريم، يستحي إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا } أخرجه أبو داود برقم (1488)، والترمذي برقم (3556)، وابن ماجه برقم (3866) من حديث سلمان رضي الله عنه . . أي: خاليتين. ومع ذلك لم يُجِبْ دعائه!! وسبب ذلك خبث المطعم، نسأل الله العافية. وكذلك من أسباب الاستجابة تكرار النداء: "يا رب... يا رب"، فهو معترف بربوبية مولاه، وأنه ربه وخالفه ومدبره والمتصرف فيه، ومع ذلك لم يُجِبْ دعائه. وهذا لا شك أنه بسبب أكل الحرام والإصرار على أكله، نسأل الله العافية والسلامة. فالمسلم يحصر على إطابة مطعمه، حتى تجاب دعواته وتقبل صلواته، وسائر عباداته، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- { إن الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشبهتا لا يعلمن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم يقول: ألا وان لكل ملك حتى وان حتى الله مجازاة! } أخرجه البخاري برقم (2051) ومسلم برقم (1599)، وأبو داود برقم (3329). . فتأخذ من هذا الحديث أن المكاسب على ثلاثة أقسام: قسم حلال، واضح الجِلِّ، وقسم حرام واضح الحرمة، وقسم مشتهية، يشتهيه على بعض الناس. فأنت إذا رزقك الله علما وصبرة عرفت الكسب الحلال؛ لأن الحلال تطمئن إليه النفس، وطمئن إليه القلب؛ ولأن الجلال أثاره واضحة، وأدلتة صحيحة صريحة. وأما الحرام فهو واضح أيضا، يعرفه الجاهل والعامي، والصغير والكبير، ومع ذلك يأكله الكثير من الناس ويتملكونه، مع علمهم بأنه حرام!! أما المشتهية فهو الواسطة بين هذا وذاك، ولا يعرف إلا الخواص من خلق الله، وعلماء المسلمين ومتصروهم، أما الجهلة وعوام الناس فهم لا يتحققون من أي القسمين هو. ومن الناس من يقول: إذا لم يكن من الحرام الصريح، فإننا سنأخذته ونتعامل به، ونجعله كسبا ما دامت حرمته لم تتحقق! وأن الأصل الإباحة! وهؤلاء لا شك قد يقعون في الحرام أحيانا. وقد ضرب لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلا بالراعي الذي يرعى غنمه حول أرض قد حاصها ملك من الملوك، له سطوة وله هبة، فهذا الجاهل جاء برعى دوابه حولها قد يعفل وقد يسهو وقد ينم، فترتع دوابه في هذا الحمى، فيأثبه حراس الملك، فيقبضون عليه ويصادرون أمواله، وربما حبسوه وضربوه! ويقولون له: لماذا جئت حول هذه الأرض وأنت تعرف أنها حمى لهذا الملك؟! وهكذا الذي يتعامل بمثل هذه المعاملات المشتهية، فهو يقع أحيانا في كثير من الأمور المحرمة، ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم- { ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام } . ولذا تحث إخواننا المسلمين على أن ينزهوا أنفسهم عن المشبهات التي يخاف أن تكون وسيلة إلى إيقاعهم في الحرام، فإنهم إذا فعلوا وتزهبوا سلم بذلك دينهم وعرضهم، وهذا معنى قوله: { فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه } . أي يسلم من الوصمة، ويسلم من القدح، ويسلم دينه وتسلم عبادته مما يقدر فيها، ومما ينقصها ويَبْطَلها أو يُنْقِص ثوبها. وأما صيانتك لعرضك، فإنك إذا ابتعدت عن المشبهات لم يجد الناس طعنا يطعنون به في عرضك، ولم يقدحوا في عدالتك، وسلم أيضا عرضك من الناس، ولم يتكلموا عنك إلا بخير، أما إذا ارتكبت شيئا من المشبهات فإنك تدعو الناس لسبك وعيبك، والقدح في ديانتك، عن علم أو عن جهل، أو عن تصور خاطئ!!